رؤية تحليلية لقضية الغدير عند المسيحيين في الأدب العربي المعاصر

د. مريم حكمت‌نيا[1]

الملخص: لقد درس المسيحيون العرب تاريخ الإسلام باعتباره جزءاً هامّاً من تاريخ العرب؛ لأنّ فيه الكمّ الهائل من الحوادث والحروب الدامية لا يخصّ المسلمين بالذّات؛ بل يشاركهم في ذلك المسيحيون؛ خاصةً الذين عاشوا بجوارهم في البلدان الإسلامية. وقضية الغدير إحدى تلك الحوادث. لقد اعتمدنا في هذا المقال على دراسات الأدباء والكتّاب المسيحيّين العرب حول علي عليه السلام أمثال: جورج جرداق، جورج شكور، سليمان الكتاني وجوزيف الهاشم وغيرهم، فوجدناهم ينظرون إلى الغدير لا من منظار الأحاديث والآيات القرآنية فحسب؛ بل من منظار العقل والمنطق أيضاً، ويواجهونه من الناحية التاريخية والاجتماعية، ويحلّلونه تحليلاً دقيقاً ويُبدون فيه آراءهم. وقد تعرض هؤلاء الدّارسون إلى الغدير حرصاً منهم لمعرفة الحقّ من الباطل، وكان الإنصاف للمظلوم عن الظالم الجانب الهامّ في هذه الدراسات، كما رأى بعضهم البحث والتنقيب في مثل هذه الجوانب التاريخية من واجباتهم نحو الحقيقة والمنطق. وكانت نتيجة تعمّقهم في أمر الغدير أنّهم وجدوه حقيقة ثابتة في التاريخ؛ بل منهم من رأى أنّ الخلافة العلوية استمرار للرسالة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم وضرورة يتطلّبها الدين الإلهي المعدّ للبشرية جمعاء؛حتى تتحقّق إرادة الله في إبلاغه إلى كل أنحاء العالم.

الكلمات المفتاحية: الإمام علي عليه السلام؛ الغدير؛ الأدب العربي؛ المسيحيون العرب.

---

١. الإستاذ المساعد، جامعة قم Hekmatnia290@yahoo.com

المقدمة

لا شكّ أنّ قضية الغدير قضية إسلامية بحتة؛ إلّا أنّنا لا ننكر وجود غير المسلمين تعرضوا للقضايا الإسلامية عامّة والغدير خاصّة، منهم المسيحيون الذين عاشوا مع المسلمين في البلاد العربية و الإسلامية وارتبط مصيرهم نوعاًما بتلك القضايا. واعتبروا أنفسهم جزءاً لا يتجزّأ من الوطن الإسلامي حتّى قال بعضهم: أنا مسلم وطناً، مسيحيّ ديناً (شهابي،٢٣). فلا غرو إذا تعرض بعض هؤلاء لأمر يخص تاريخ الإسلام والمسلمين. ثم من الواضح أنّ البحث عن الحقيقة لا يمكن أن يحتكر على دين أو قوم أو ملة؛ بل إنه متاح للجميع في كلّ العصور، كما أنّ الحقيقة مشاع لهم.

من هذا المنطلق فقد وقف بعض الدّارسين المسيحيّين في العصر الحديث من خلال دراساتهم، عند قضية الغدير والخلافة الإسلامية بالذّات، بما لها من دور كبير في حياة البشرية جمعاء؛ بماضيها وحاضرها ومستقبلها. فما كانت أهدافهم؟ وهل وفّقوا في تحليل تلك الحوادث والقضايا؟ وإلى أيّ نتائج وصلوا؟

لقد جاء للمسيحيين من القدامى والمحدثين أشعار في مدح الإمام علي عليه السلام أشار إليها كتاب الغدير للعلامة الأمينى مثل ابن إسحاق الموصلي (الأميني،٣: ٧) وبولس سلامة. يبدو من خلالها أنّهم تأثّروا بمظلوميّة الإمام وأبنائه فجهروا بحبّه؛ كما أعجبوا بشجاعته و بعدالته، وفصاحته وبلاغته إعجاباً عميقاً، دفعهم ذلك في العصر الحديث إلى خلق ملاحم عربية وإنشاد أشعار وتأليف كتب حول شخصيّته الإمام علي عليه السلام الفذّة، كما فعل جورج جرداق وعبد المسيح الأنطاكي ونصرى سلهب وجوزيف الهاشم وغيرهم من المسيحيين. لقد قمت في سنة ١٣٨٤هـ.ش إلى البحث والتنقيب حول مؤلفات المسيحيين في مجال علي عليه السلام وحوادث عصره عليه السلام وقابلت بعض هؤلاء المسيحيين في لبنان ووفّقت في كتابة أطروحة دكتوراة ظهرت إلى الوجود سنة ١٣٩٠هـ.ش. بعنوان: الإمام علي عليه السلام في أدب المسيحيين العرب المعاصرين. كانت هذه الأطروحة من أهمّ مراجع اعتمدت عليها في هذا المقال واستندت عليها. كما استندت إلى مؤلفاتهم من جديد. وذلك للاطّلاع على آرائهم حول قضية الغدير خاصّة. ووجدت في كلّ تلك المؤلفات أنّ الاستدلالات العقلية والمنطقية تطغى على المباحث. حاولت في هذا المقال عرض آرائهم في إثبات الغدير، وذلك من خلال الأشعار والنصوص الأدبية حيناً والتاريخية والاجتماعية حيناً آخر. وقد قارنت بين آرائهم في بعض الأحيان حتى يكون الموضوع المطروح أكثر وضوحاً وشخصية الكاتب أكثر بروزاً. وركزت على

ناحيتين أساسيتين من نواحي بحوثهم ومناقشاتهم، هما: التاريخية والعقلية.

الغدير حقيقة تاريخيّة لا تُنكَر

مما لا خلاف فيه، أنّ النبيﷺ في السنة العاشرة للهجرة أعلن في الناس أنّه حاجّ في ذلك العام حجّةَ الوداع، وخرج من المدينة فوافاه جمع كثير من المسلمين، وقضوا مناسكهم مع النبيﷺ وخرجوا قاصدين مدينة رسول اللهﷺ، وقد ألقى لهم خطبة قبل أن يتفرّق جمعهم، أخبر فيها عن دنوّ أجله، وأشهدهم على إبلاغ أوامره ورسالته؛ إلاّ أنّ التواريخ تختلف في موضع الخطبة التي ألقاها الرسولﷺ وما تحتوي عليه الخطبة، والمعروف عند أهل السنّة أنّها كانت في عرفة، ولا يرون فيها ذكراً لعليعليه السلام ولا أثراً لإيصاء النبيﷺ بالخلافة من بعده، على الرغّم من أحاديث عديده وردت فى مؤلفاتهم. والمتيقّن عند الشيعة أنّ النبيﷺ عند الرجوع من حجّة الوداع أمر بالنزول في الموضع المعروف بغدير خمّ قريباً من الجحفة، وذلك في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة. فنزلوا جميعاً، فقام النبيﷺ على موضع مرتفع خطيباً، وعليعليه السلام بجانبه، فحمد الله وأثنى عليه، وأشهد المسلمين على تبليغ الرسالة، وأن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداًﷺ رسول الله، وأنّ الجنّة حقّ وأنّ النار حقّ، وأنّ الموت حقّ، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور، ثم أعلن ولاية عليعليه السلام، وأوصاهم بأهل بيته خيراً، وقال في ما قال: "مَن كُنتُ مَولاهُ فَهذا عليٌ مَولاهُ، اللّهمَّ والِ مَنْ والاهُ، وَعادِ مَن عاداهُ ... ." (الكليني،١: ٢٩٣)

لقد تطرّق بعض الكتّاب والشعراء المسيحيين إلى إسناد هذا الحديث، منهم الشاعر الملحميّ البارع "بولس سلامة" قال في هامش كتابه: "حديث الغدير أيّدتْه الحجج المكينة رغم المشادة التي قامت حوله، وقد ألّفت المؤلفات المستفيضة تأييداً لصحته، مما لا يسعنا نقله في هذا الهامش". (سلامة،١٠٨)

وذكر منها أيضاً مؤلفات العالم الفاضل الشيخ عبد الحسين الأميني، وقال: "ولا ريب في تواتره من طريق أهل السُنَّة، وصاحب الفتاوى الحامدية يصرّح بتواتر الحديث في رسالته المختصرة الموسومة بالصلوات الفاخرة في الأحاديث المتواترة، والسيوطي وأمثاله من الحفّاظ ينصّون على ذلك". (نفسه ١٠٩)

كما ذكر من المؤلفين: محمد بن جرير الطبري، وأحمد بن محمد بن سعيد بن عقدة، ومحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي". (نفسه١٠٩)

لقد استند "جورج جرداق" أيضاً إلى أحاديث وردت فى مؤلفات أهل السنة، مثل تاريخ "اليعقوبي" وغيرها مما يثبت حادثة الغدير، ولم يهمل أسناد حديث الغدير، بل أشار إلى أنّ الحديث أخرجه كثير من المؤرخين ومن العلماء، أمثال "الترمذي"، و"النسائي"، و"الإمام أحمد بن حنبل"، كما رواه ستّة عشر صحابياً. (راجع جرداق، ٥٣- ٥٨)

إنّ كلّ واحد من هؤلاء المسيحيّين عرضَ الموضوع من ناحية خاصّة وبأسلوبه الخاصّ، فمثلاً مِن الشعراء مَن ذكر الغدير بإعجاب وتعظيم بالغَين، وصورّها تصويرا دقيقا ونظم الحادثة كما وقعت. فالأنطاكي نظم قصيدته في الغدير في ثمان وسبعين بيتاً عنوانها: «وصاية المصطفى للمرتضى» وسرد التاريخ سرداً وأورد في الهامش قضايا تاريخية مفصّلة في هذا المجال وأشار إلى جزئيات وردت في أحاديث الشيعه وكتب التفسير كنزول الآية: سأل سائل بعذاب واقع (المعارج٧٠:١) وهي: "لما شاع خبر غدير خم بين الناس وإيصاء الرسول لعلى عليه السلام و قوله صلى الله عليه وآله وسلم: من كنت مولاه فعلي مولاه، وبلغ ذلک الحارث بن النعمان الفهري، ركب جواده وأسرع يطلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليثبت الخبر من فمه الطاهر، ولما دخل عنده قال: «يا محمد! أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك محمد رسول الله، فقبلناه منك، وأمرتنا أن نصلّي خمسا فقبلناه منک، وأمرتنا بالزكاة فقبلناه منک وأمرتنا أن نصوم شهرا فقبلناه منك، وأمرتنا أن نحج البيت، فقبلناه منك، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمك عليّ عليه السلام ففضّلته علينا وقُلتَ من كنت مولاه فعلي مولاه. فهذا شيئ منک أم من الله؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: والّذي نفسي بيده ولا إله إلاّ هو، إنّه من أمر الله. فولى الحارث بن النعمان إلى راحلته وهو يقول: اللّهم إن كان ما يقول محمد حقّاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فما وصل إليها حتى رماه الله بحجر فسقط على هامّته وخرج من دبره فقتله، فأنزل الله تعالى: سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ (المعارج٧٠: ١و٢)». (ابن طاووس، ١: ١٥٢).

فقد صوّر "الأنطاكي" تلك الحادثة في ثلاثة وعشرين بيتاً. قال فيها عن الحارث الفهري وغضبه من وصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام ومجيئه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

وقال إن تك حقّاً يا إلهي قو	لة الرسول وحقاً أنت باغيها
أرسل علينا جميعاً من سمائك أحـ	ـجاراً وعذِّب نفوسا رمتَ تُشقيها
وما أتمَّ، خزاه الله، قولته	في باب مسجد طه وهو تاليها
إلاّ الحجارة من عالي السماء عليـ	ـه الله سبحانه قد كان راميها

فمات حالاً وتلك معجزة بها أطاع رسولَ الله رائيها
وأيقنت أمة الهادي بأنّ عليّ نا لقد فاق كلَّ الناس توجيها

(الانطاكي،٢١٧)

في حين أنّ "جورج شكّور" لخّصها حسب عادته وعرض حادثة الغدير في اثنين وعشرين بيتاً فقط، أورد فيها قول الرسولﷺ، مُشيراً إلى الحديث النبوي في الغدير وقال:

لفظ الرسول رسالة عُلوية وسما يردّدها لسان عصور
يا أيها الناس الكرام، لموشك أني سأدعى، حان يوم مسيري...
فأضاف: مولاي الإله فإنني للمؤمنين صحابتي وعشيري
مولى وأولى منهم بنفوسهم والله في يوم الحساب مجيري
وسنلتقي يوما على الحوض الذي كاساته من فضة وأثير
ولسوف يأتيهم عليّ مبكرا في الوافدين وقبل كلّ بكير
وهناك أسألهم: ترى حفظوا مع الآيات مِ القرآن أمر أميري؟

(شكور، ٦٣)

إنّه يشير إلى الحديث الذي ورد عن النبي في قولهﷺ: "عليّ مني وأنا منه" (الصدوق، ١٤٩). ثمّ يضيف إليه معاني ما ورد في الأحاديث النبوية الأخرى حول درجة عليعليه السلام في يوم القيامة و قربه من النبيﷺ. فعليّعليه السلام هو الذي يلتحق بالنبيّ عند الحوض قبل كلّ أحد. أما المسلمون فهم مسؤولون عمّا فعلوا في عليّعليه السلام وسوء معاملتهم له.

لقد ورد في حديث الغدير أنّ الرسولﷺ قال: "أيّها الناس إنّي فرطكم وأنّكم واردون على الحوض وهو حوض أعرض مما بين بُصرى إلى صنعاء، فيه عدد النجوم قدحان من فضة، وإني سائلكم حين تردون علي عن الثقلين كيف تخلفوني فيهما، الثقل الأكبر كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، فإنّه قد نبّأني اللطيف الخبير أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض". (المجلسي،٨٩: ١٠٢)

و"بولس سلامة" استحسن الإطالة في الغدير ونظمها في اثنين وتسعين بيتاً، واهتمّ إليه اهتماماً بالغاً حتى سمّى ملحمته كلّها "**عيد الغدير**". يقول فيها عن حجة الوداع وكثرة الناس فى موضع غديرخم وخطبة النبيﷺ وشعاع الشمس حيث «يبعث الدفء في صميم البذور» وتدري «ما يكتم الليل من وجهٍ صقيع ومن ظلام ضرير».

ويشير إلى الآية القرآنية التى نزلت فى هذا المجال: يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (المائدة: ٦٧):

جاء جبريل قائلا: "يا نبي الله ... بلِّغ كلام رب مجيرِ
أنت في عصمة من الناس فانثر ... بينات السماء للجمهور
وأذعها رسالة الله وحيا ... سرمديا وحجة للعصور

(سلامة، ١١٠)

كما يؤكّد على المهنئين في ذلك اليوم من أصحاب محمدﷺ ومن أزواجه حين جاءوا وهنّأوا عليا عليه السلام بالولاية ثم يطلق "بولس" العنان في مدح علي عليه السلام ويرى الغديرسوف ينتشر صداه في جميع أنحاء العالم كما يرى مستقبل الإسلام ومستقبل العالم زاهياً وزاهراً بالغدير، فيجعل البيد تنثر على الصحراء وشيا من كل زهر نضير وتتحول النجوم الزاهرة فى الليالى إلى ألسنة فضية تعبر عن ولاية على عليه السلام وينشر الورد طيب ذكر علي عليه السلام في النسيم الريان وفي بسمة الصباح وفى هتاف الطيور، فيقول:

بثّ طه مقاله في عليّ ... واضحاً كالنّهار دون ستور
لا مجاز ولا غموض ولبس ... يستحثّ الأفهام للتّفسير
فأتاه المهنّئون عيون الـ ... ـقوم يبدون آية التوقير
جاءه الصاحبان يتدران الـ ... ـقول طلا على حقاق العبير
"بثّ مولى للمؤمنين هنيئاً ... للميامين باللإمام الجدير"
هنّأته أزواج أحمد يتلو ... هنّ رتل من الجميع الغفير
عيدك العيد يا عليّ فإن ... يصمت حسود أو طامس للبدور
تنطق البيد ناثرات على الصحـ ... ـراء وشياً من كل زهر نضير
وتحول النجوم في الليلة الزهـ ... ـراء لُسنا فضية التعبير
ينشر الورد طيب ذكرك فوحاً ... فعليّ مرجَّع في العطور
في النسيم الريان في بسمة الـ ... ـإصباح، خفت على الجمان النثير
في هتاف الطيور هبت نشاطاً ... مرهفات اللها، عصاة الوكور

كلّما غرّد الهزار قراراً هاج لحن الجواب في الشحرور

(سلامة،١١٢و١١٣)

والآخرون من الشعراء ذكروا الغدير في قصائد متفرقة، كما فعل "جوزيف الهاشم"، فقد قال وهو يصف الحجيج في عودهم من الحج، ونزول القوافل وخطبة الرسول وإعلان ولاية عليعليه السلام:

هلَّ الغديرُ بأسراب الحجيج وما تباطأ الركبُ يشدو في مسيرتهِ
في صوته نغمات الحزن يخنقها رجع التشهد إذعاناً لسنّتهِ
دنا الوداع كما الرّوح الأمين دنا ينزّل الآي معموراً بفرحتهِ
هو العليّ، وصيّ الإرث فابتهِجوا ووزِّعوا البشر وأحكوا عن ولايتهِ
وليّ من كنت مولاه وسيّده يا أيّها القوم سيروا تحت رايتهِ
يحبّه من أحبّ الله، يبغضه من أبغض الله يقضي في ضلالتهِ
اليوم أكملت يا إسلام دينكم فسبّحوا الله في إتمام نعمتهِ

(الهاشم ٤٩)

إنه يصرّح بوصاية النبي إلى عليعليه السلام كأمر واجب من الله نزل به الروح الأمين، فأمر المسلمين أن يسيروا تحت راية عليّعليه السلام، وجعل حبّه وبغضه ميزاناً لحبّ الله وبغضه، وأشار إلى الآية التي نزلت في ذلك اليوم وأخبرت عن كمال الدين بإعلان الولاية: "الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ دينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَ رَضيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ ديناً" (المائدة: ٣).

أمَّا الكتّاب من المسيحيين فوجدوا في الغدير مجالاً للمناقشة المنطقية، فحاولوا أن يبحثوا حوله عن طريق الأحاديث المروية حيناً والأدلة العقلية حيناً آخر، فمثلاً العزيزي أورد حديث الغدير برواية المفيد في سيرة أمير المؤمنين عليعليه السلام، ثم لعلمه بالخلاف الموجود بين الشيعة والسنة في هذا المجال، دخل من باب إثبات الموضوع من النواحي المختلفة، وأقام دلائل استند عليها، يمكن تلخيصها وجمعها في ما يلي:

– إنّ الدولة الفاطمية اهتمّت بعيد الغدير وعدّته أعظم الأعياد الإسلامية، حتى أنّ المعزّ كان يخرج إلى قنطرة المقسّ ويعرض الأسطول ويعوّذه ويباركه ويدعو له، وكان اهتمام الفاطميّين بها أكثر من عيد الأضحى.

– إنّ العزيزي لا يريد أن يخوض في الخلافات ولكنه يرى حبّ النبيﷺ لعليعليه السلام، وإيثاره إيّاه على غيره في كثير من المجالات أمراً لا يمكن أن ينكره أحد، وإن أنكروا الغدير.

– إنّ تقديس الشيعة علياًعليه السلام وهم قسم كبير من المسلمين تمسكوا بولاية عليعليه السلام، وتعظيمهم لذكرى الغدير له مغزاه، ولا يمكن أن يكون بلا دليل وسند.

– لعلّ خير دليل يقدمه العزيزي هو استنطاقه للأدب الذي وجد فيه مادةً خصبة وغزيرة لتكون سنداً لحقيقة عيد الغدير، وقد ورد أنّ حسان بن ثابت قام في يوم الغدير واستأذن النبيﷺ أن يقول في ذلك ما يرضاه الله، فقال أبياتاً مطلعها:

يناديهمُ يوم الغدير نبيهم بخمّ وأسمع بالرسول مناديا

(المجلسي، ١٠: ١١٧)

ثم ذكر أبياتا لكميت بن زيد الأسدي والسيد الحميرى وأبي تمّام حبيب بن أوس الطائي وغيرهم ليستدلّ بها على غزارة مادّة الغدير في الشعر العربي قديماً وحديثاً، وما كتاب الغدير بمجلداته العشرين، للعلامة الأميني إلاّ مجموعة كبيرة من تلك الأشعار التي نظمت في حادثة الغدير، أوليس كلّ هذا يوحي بصحة حادثة الغدير في الثامن عشر من ذي الحجة وإبلاغ أمر الولاية من لدن محمدﷺ؟ فمن هنا يقول: لكن القول المأثور: "لا دخان بلا نار"، يميل بنا إلى الأخذ بروايات أهل البيت وترجيحها على غيرها. (راجع العزيزي ١٢٨-١٣٢):

الغدير كمال المشروع الإلهي

توسّع الأديب المسيحي نصري سلهب في موضوع الغدير وبسط الكلام فيه، إنّه تصوّر النبي يخرج من المدينة إلى مكة ويقضي مناسكه ثم يعود، وهو في حوار ذاتي، يحدّث نفسه في أمر رسالته التي لا بدّ أن تشمل العالم ولم تتجاوز بعدُ الجزيرةَ، ثم في أمر الخلافة وفي من سيُخلفه ومن يليق به أن يخلفه بعد موته، ليوسع دائرة رسالته؟

وفي الواقع، إنه يتصوّر حواراً بين النبيﷺ وجبريلعليه السلام، ليصوّر المرحلة الصعبة التي مرّ بها الرسولﷺ في تنفيذ أمر الله في المراحل الثلاث التي نزل فيها جبريلعليه السلام يوحي إليه أمر الله في إبلاغ ولايه عليعليه السلام. إنه يستطيع من خلال هذا الحوار أن يبيّن قلق الرسول، ويصوّر التزامَ الرسول بتنفيذ الوحي من جانب ونفسيّة المسلمين وتعلقَ أكثرهم بالعصبية القبلية من جانب آخر؛ تلك العصبيه التي طالما حاربها النبي وأراد محوها، ولكنّها لم تُمح تماماً، بل بقيت كَنار تحت الرماد. ثم

الوصية إلى عليعليه السلام، كيف يمكن للرسول أن يعرضها على هذه المجموعة، بهذا التكوين الخاصّ؟ كلّ هذه مقدمات يعرضها سلهب من خلال هذا الحوار ليصل إلى نتيجة، وهي لزوم الإيصاء لعليعليه السلام علي الرغم من كل الموانع والمشقّات التي كان يواجهها النبيّ في تلك اللحظات الحاسمه البنّاءة. إن المقدمات التي عرضها سلهب في هذا المجال يمكن أن نجملها في ما يلي:

– الحاضرون في الحجّ مع النبي كانوا ينتسبون إلى قبائل كثيرة.

– لم يستطع المسلمون أن يزيلوا العصبية القبلية ولم يتحرّروا تحريراً مطلقاً من الماضي ورواسبه.

– إنّ النبيصلى الله عليه وآله وسلم كان واثقاً أنّ خير من يُخلفه هو عليّعليه السلام، لا للقرابة والنسب، لأنّ النبيّ لا يأخذ هذه المعطيات بعين الاعتبار في أمر الدين.

– إن النبيصلى الله عليه وآله وسلم يفكّر بواقع الدين ومستقبل المسلمين؛ كما يفكّر بمستقبل البشر، فلا يمكن أن يتأثّر بالعواطف الشخصية خارجاً عن لغة العقل؛ بل يعمل بلغة العقل وحدها.

– إن اختيار عليّعليه السلام وإعلانه خليفةً لرسول الله يوهّم الناس – وهُم على ما قلنا من النزعات الجاهلية– أنّ النبيّ تدفعه العصبية القبلية لاختياره، فيشدّ في نفوسهم العصبية ويستيقظ في أعماقهم تلك العصبية القبلية التي لم تمت.

– إن النبيّ والمؤمنين الحقيقيين يعتقدون أنّ القرابة الحقيقية التي تطغى على كلّ الصلات والقرابات، هي قرابة الدين: المؤمن أخو المؤمن، والأخوّة الدينية أقوى صلة تصل بين النبيصلى الله عليه وآله وسلم وعليعليه السلام بحيث تبقى صلة النسب والقبيلة لا تعتبر شيئاً في القياس بتلك الأخوّة الدينية.

– إن النبيّ بحكمته وبُعد نظره وعلمه بخفايا الأمور وظواهرها لا يمكن أن يتّخذ قراراً يشتّت جمع المسلمين ويفرّق صفوفهم، وباعتبار آخر لا يمكن أن ينزع الرماد عن نار العصبية لتلتهب، ولن يأتي عملاً يفسّره الكثيرون رجوعاً إلى العصبية القبلية.

– ولكن هل يمكن لهذا القوم أن يكونوا قد نسوا بلاء عليعليه السلام في حروب الإيمان؟ تلك التي أحرزت النصر للإسلام، ولو لم تكن لما قام الإسلام على دعائمه.

– وهل يمكن أن يكونوا قد نسوا ما قاله النبيصلى الله عليه وآله وسلم في عليعليه السلام في مجالات مختلفة ومن أقواله: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى" (الطوسي،٣٥١)، و "أنت وليّ كلّ مؤمن بعدي" (نفسه٤٥١)، ألم يكن في كلّ تلك الأقوال ما يدلّ على عظمة شأن عليعليه السلام وخلافته للرسولصلى الله عليه وآله وسلم، ولكنّهم لم يأخذوها بعين الاعتبار، ولم تعط أقوال النبي ثمارها، ولم تقترن بالنتائج التي كان ينشدها ويرجوها.

-إذا كانت الصفات والمزايا هي التي تسمو بالإنسان وتجعله أجدر لتولّي الحكم، أليس عليّ عليه السلام أجدر لتفوّقه على المسلمين فيها؟ فمن له مثل بطولته، وعلمه وشجاعته، وزهده وتقواه، وإيمانه وفقهه، ومَن أخلصَ للنبيّ كما أخلص عليّ عليه السلام له؟ ومَن مِنهم قال فيه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ما قاله في علي عليه السلام، أفليست هذه الفضائل جميعها تؤهّله ليخلف الرجلَ الكبير؟ فكيف يمكن أن يرى المسلمون إيصاءه بالخلافة لعلي عليه السلام من منطق العصبية؟

- هل يجوز للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يُهمل الوصية ويُهمل مصير الإسلام والرسالة، لإرضاء أولئك الذين لم يزيلوا عن قلوبهم العصبية القبلية؟

إن سلهباً بعد هذه المقدمات يبدي عن النتيجة التي وصل إليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي أنّ كفة الإيصاء بالخلافة لعلي عليه السلام ترجّح على الكفة الأخرى، لما فيه ما يرتبط بمصير الإسلام و المشروع الإلهي. (راجع سلهب، ٣٩٩- ٤٢٥):

من الواضح أنّ الحوار الذي أجراه سلهب على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو حوار سلهب مع عقله وفكره، ليصل إلى نتيجة معقولة منطقية يرضي بها عقله. والذي يحكم به عقل سلهب ومعادلاته في هذا المجال أنّ النبيّ لا يمكن أن يترك ما يتعلّق بمصير الرسالة الإلهية لصالح نفسيات ارتبطت بنوع من الأنواع إلى الماضي المظلم، ولا أن يترك مصير الهداية الإنسانية في مستقبل البشر لصالح مشتهيات قوم لم يريدوا أن ينفصلوا تماماً من الحمية الجاهلية.

لا شكّ أن هذه المقدمات والنتايج تبقى في حدود لغة العقل التي تفوق باقي اللغات، وهي دون لغة الوحي مرتبةً؛ بل إنه مؤيد تلك اللّغة الوحيانية ومصدّقها. فلهذا يجعل النبيّ لا ينطق بتلك النتيجة إلاّ بعد ما يحلّل القضايا واحدة بعد أخرى و بعد نزول الوحي من عند الله، لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم لا ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ وحي يوحى، فإذا به يسمع الوحي ينزل عليه واضحاً صريحاً حاسماً: يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ. (المائدة٥:٦٧)

ثم يستمرّ "سلهب" في عرض حوار النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع نفسه لينبّه إلى أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد بلّغ جميع ما أُنزل إليه ولم يقصّر في إبلاغ آية من آياته؛ مهما صعب الإبلاغ، إلاّ هذا الأمر العظيم الذي يَحذَره -لا خوفاً على نفسه؛ بل خوفاً على رسالته وضياعها وخوفاً من انقلاب المسلمين على أعقابهم -حتى يعطيه الله الأمان والعصمة، لأنّه إذا لم يبلّغه فكأنّه لم يبلّغ رسالة الله.

يستنتج "نصري سلهب" من هذه الجملة الأخيرة أنّ إبلاغ خلافة عليعليه السلام تعدل الرسالة كلّها، فيعتقد اعتقاداً جازماً أنّ الولاية العلوية استمرار للرسالة المحمّدية وضمان بقائها. ومع هذا يأتي بأدلّة لإثبات استمرارية الخلافة للرسالة، منها: إن النبيّصلى الله عليه وآله وسلم بُعث نذيراً للعالمين، وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم: تَبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمينَ نَذيراً. (الفرقان٢٥: ١)

وقال: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَميعاً الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيي وَ يُميتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. (الأعراف٧:١٥٨)

وقال: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشيراً وَ نَذيراً وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ. (سبأ٣٤: ٢٨)

فكان على النبيّصلى الله عليه وآله وسلم أن يُبشّر كل الناس ويُنذرهم ويبلّغ رسالته إلى العالم لكنّ عمره لم يكن بحجم رسالته، فقد حاول أن يبلّغ الرسالة إلى كلّ أنحاء الأرض وبذَل قصارى الجهود وكتَب الكتب ووجَّهها إلى ملوك بيزنطة وفارس والحبشة وسواهم؛ لكنه لم يحقّق ما كان عليه من الإبلاغ. فإذن، على وصيّه أن يكمّل ما بدأه الرسول. ولكن مَن يستطيع أن يكمّل عمل الرسول في نشر الدين الجديد على الناس كافّةً؟ ومَن أعطي مِن المؤهّلات لهذا الأمر العظيم كما أُعطي عليّعليه السلام؟ فيقول: "فكما كان لله شأن في محمّدصلى الله عليه وآله وسلم فجعله نبياً ورسولاً، كذلك كان له عزّ وجلّ، شأن في عليّعليه السلام، فقضى بأن يكون خليفة محمدصلى الله عليه وآله وسلم ليكمّل الرسالة ويرعى شؤون الدين الإسلامي". (سلهب، ٤٠٨)

إنّه بهذه المعاني يعطي لعليعليه السلام شخصية تتفاوت تماماً عن الآخرين من الصحابة ويجعله في عداد الأنبياء وفي درجتهم؛ بل يراه إماماً مختاراً من قِبل الله تبارك وتعالى. فكما اختار الله النبي للنبوّة كذلك اختار عليا عليه السلام لإكمال دينه ونشره في العالم.

هنا وفي هذا المجال من كلام نصري سلهب يجدر بنا أن نشير إلى نزول آية البراءة في عصر الرسولصلى الله عليه وآله وسلم، وكيفيّة إبلاغها حين نزلت: بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكينَ فَسيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَريءٌ مِنَ الْمُشْرِكينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَليمٍ. (التوبة ٩: ١و٢)

فقد ورد في مسند "أحمد بن حنبل" عن أبي بكر، "أنّ النبيّصلى الله عليه وآله وسلم بعثه ببراءة لأهل مكة، ...

فسار بها ثلاثاً، ثم قال رسول اللهﷺ لعلي رضى الله تعالى عنه: ألحقه، فَردّ عليَّ أبا بكر وبلّغها أنت، قال: ففعل، قال: فلما قدم على النبيﷺ أبو بكر، قال: يا رسول الله، حدث فيَّ شيء؟ قال: ما حدث فيك إلاّ خير، ولكن أُمرتُ أن لا يبلغه إلاّ أنا أو رجل مني". (ابن حنبل، ٣:١)

فإذا لم يرض الله – والأمر كلّه له – أن يبلّغ غير عليعليه السلام عن الرسولﷺ آية واحدة في بلد صغير، ضمن حدود الجزيرة، فهل يعقل أن يرضى بإبلاغ الرسالة كلّها إلى العالم كلّه وإلى الناس كافة، بيد غير عليعليه السلام، مهما كان هذا الغير.

ثم لم يكن اختيار عليعليه السلام واصطفاؤه إلاّ كاختيار النبيﷺ واصطفائه، منطلقاً من هدف يتطلّب من المبلغ والمنذر أن يكون متميّزاً بمواهب تخصّه دون غيره و فضائل فضّله الله بها على غيره من البشر؛ بل هو الوحيد الذي يشارك الرسول في تلك الخصايص والفضايل. وهذا معنى قولهﷺ :" إلاّ أنا أو رجل منّي " في الحديث المذكور، ويذكرنا بقولهﷺ : "أنا وعلي من شجرة واحدة والنّاس من أشجار شتى" (الإربلي،١: ٥٢) أو قولهﷺ : "نحن أهل بيت لايقاس بنا أحد" (نفسه١: ٣٠)

أما الكتاني فهو يرى علياًعليه السلام والنبيﷺ أبوين صميمين للأمة الإسلامية، ويصرّح به في أكثر من موضع في كتابه، إنه يعتمد في أقواله إلى أمور هامة منها:

– إنّ عليّ بن أبي طالبعليه السلام هو ركيزة الأساس، وهو بالنسبة للرسالة كلّ الرسالة في تأسيسها وفي طريقة المحافظة عليها، في نشرها وفي مجالات الدفاع عنها.

– إن لعليعليه السلام أطول سلسلة من النعوت الكريمة يتحلّى بها. فهو قوة وإرادة وشجاعة وبطولة وعقل ومعرفة وحقّ وعدالة ومثال وكمال... فأيّ شيء يحول دون تسليم الزمام إلى يد كريمة كهذه اليد التي يعزّ نظيرها في كلّ الجزيرة" (كتاني، ١٣٤)

و "جرداق" الذي دفعته عظمة الإمام عليعليه السلام إلى أن يكتب عنه ألف صفحة في كتابه "صوت العدالة الإنسانية"، لم ير في عليعليه السلام ما يجعله في صف الصحابة أبداً، بل رآه: "وارثاً لمزايا الرسول، مصطبغاً بصبغته، أثيراً لديه، حبيباً إليه، عظيماً في جَنانه وعلى لسانه" (جرداق، ٥٨)

كما رأى في أقوال النبيﷺ وأعماله تجاه عليعليه السلام ما يمهّد لعليعليه السلام سبيل الخلافة، لأنّه رأى فيه صورة عن النبيﷺ من حيث سموّ الخلق ونبل المقصد وسائر المكارم، ويجزم بأنّ علياًعليه السلام كان استمراراً لمحمدﷺ، ولهذا كان يحبّه ويحبّبه إلى الناس في كلّ ظرف ومناسبة. إنّ جرداق يشير إلى

حقيقة أشار إليها نصري سلهب، و يؤكد على أمر هامّ وهي أنّ النبي لا يمكن في حبّه لعلي عليه السلام وإيصائه له أن يعتمد على عواطفه البشرية، أو على أيّ مصير غير إلهي؛ بل حبّه هذا لعليّ عليه السلام "حبٌ يأخذ مصدره من حبّه للرسالة ذاتها... لا لكونه ابن البيت الهاشمي، وابن عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّ النبي قد اتّقى هذه العصبية؛ بل إنه حاربها جاهداً وحطّم مفاهيمها تحطيماً". (نفسه ٥٨)

لماذا أهمل الغدير؟

قد يخطر على البال والغدير يحمل في زواياه و أحنائه وأضلاعه هذه الأهمية والعظمة كيف يمكن للمسلمين أن يهملوه ولا يُعطوا له اعتباره؟ أو يكذبوه أو يريدوا تحريفه أحياناً؟

إن الذين ناقشوا قضية الغدير من الدّارسين المسيحيّين تطرّقوا لا محالة إلى هذا الأمر ورأوا أن الأمّة الإسلامية لم يكن لها أن تقف هذا الموقف من الغدير ومن علي عليه السلام مع علمهم بالوحي السماوي من جانب وبمكانة علي عليه السلام عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم من جانب آخر؛ إلاّ أنّ بعضهم عرض هذا المعنى دون تصريح، ومنهم من صرّح مع شيء من التحفّظ، ومنهم من تحمّس لعلي وأولاده فحمّل الخلافة كلّ الذنوب والآثام ورأى لها يداً في ظلم أهل البيت عليهم السلام، وحتّى في قتل الحسين عليه السلام. على كلّ حال، يبقى الاحتجاج ظاهرة لا تفارق المؤلفات في كثير من الأحيان شعراً كانت أم نثراً، إلاّ في القليل النادر. فمثلاً " شكّور" يمرّ عن أمر الخلافة مروراً سريعاً دون أن يذكر الخلفاء وعصورهم، وربما لا يهمّه الخلفاء لأنّه يكتب ملحمة الإمام علي عليه السلام ولا داعي لذكرهم إلاّ في ما كان من صميم الموضوع؛ لكنّك تجد طعنات خلال حديثه عن الغدير.

إنه يشير إلى إشاعة الأخبار الكاذبة عند مصيبة موت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ثم إجتماع الناس في السقيفة، فيذكر الأخبار كما وردت في التاريخ دون أن يبدي رأياً صريحاً في الشخصيات التي كان لهم دور في السقيفة، ودون أن يتعرض على أحد بسوء، ولكنه يتألم من أنّهم نسوا أمر الرسول في غدير خم، ويستغرب منهم كيف يأتمرون وآل البيت عليهم السلام غائبون؟ فيقول:

ولدى السقيفة دار كلّ تداول — أتُرى تَناسوا وانتهى التذكارُ
أنّ النبيّ بيوم خمٍّ قد رأى — وجه العلي خليفةً يُختارُ
والقوم بايعه وكرّم وجهه — عمر، أبوبكر وذاك جهارُ
والآن يأتمرون غُيّب عنهمُ — آل الرسول وذلك التيّارُ

(شكور، ٦٧)

ثم يختم قصيدته ببيت يبرز فيه رأيه في السقيفة، حين يقول:

ويحَ السياسة كم تباعد سيّداً لينوب عنه مساومٌ مكارُ

(نفسه ٦٧)

فيقذف بالذنوب كلّها على عاتق السياسة ويحمّلها كلّ المسؤولية، تلك السياسة التي أقامت السقيفة، وواضح أنّ السياسة لولا رجالها، لا تعني شيئاً.

أما "الأنطاكي"فقد قال عنه:

إلاّ أناس أكنَّت بغضة لعلـ يّ ما نَسَت أنّه قد كان غازيها

فاستعظمتْ أمر هاتيك الوصية لم ترغب بها كذّبت من راح يرويها

أو أنّها حسداً كانت تؤوّل ها تيك الوصية أو تسعى لتخفيها

والناس إذ كثرت شتّى مطامعها لا الأنبياء ولا الأملاك ترضيها

فكيف ترضى على المولى أبي حسن وكان مُكبتَ عاصيها وعاتيها

(الأنطاكي، ٢١٦)

إنه يحلّل الأمور ويرى جذور الإهمال والتكذيب والتأويل في أمرين اثنين:

الأوّل: بغضهم لعليعليه السلام، لأنّه هو الذي جاهدهم وقتل منهم كثيراً، وهذا كان سبباً ليكنّوا له بغضاً، وقد كان هذا البغض مشهوراً في عصر الرسول حتى نبّه النبيّ إلى خطره وقالصلى الله عليه وآله وسلم: "عليّ عليه السلام حبّه إيمان وبغضه نفاق". (المجلسي ٢٧: ١١٢)

والثاني: الحسد، وهو الذي دفعهم إلى تأويل حديث الغدير، ذلك الحسد الذي جعل علياً عليه السلام مرمى سهامه في كلّ أدوار حياته ولم ينج منه في آن من الآنات، فإنّه كما يقول "روكس" وهو يرى الحسد عاملاً هامّاً مِن عوامل إهمال الغدير: "وإنّ كلّ شيء ممكن إلّا إقناع الذي يحسدك على سمعة حسنة، أو فضيلة ممتازة، وقد كانت سمعتك الطيبة يا أسد الإسلام، وفضائلك الممتازة يا قدّيس الإسلام، من شجاعة وبطولة وكرم ووفاء تثير حولك عاصفة من الحسد الذي لا سبيل إلى وأده، ولا طريقة إلى تلافيه". (العزيزي، ٢٢)

لقد أشار الآخرون أيضاً من الكتاب المسيحيّين إلى هذا الحسد الذي جال في صدور بعض المسلمين لما رأوا قرب عليعليه السلام من رسول الله وحبّ الرسولصلى الله عليه وآله وسلم له في كلّ الأحيان؛ ولما رأوا فيه فضائل وخصالاً تفوق الآخرين من البطولة والشجاعة والفروسية والعلم والفقه و...، ووصل الحسد إلى القمّة في الغدير حين أعلن الرّسول ولايته على ملأ من المسلمين. وقد أشار إلى هذا الحسد كثير

من المسيحيين، كما أشار إليه "بولس" بقوله:

لم يؤاخ النبيُّ غيرَ عليّ حَفنةَ التّبر أدمجَت بالنُضار

حسدٌ جال في الصدور وهمسٌ وعيونٌ في حيرةٍ وَازورار

(سلامة، ٥٢)

إنه رأى بداية ظهور الحسد في القوم من بداية الهجرة النبوية؛ يوم آخى الرسول بين المسلمين واختار علياً عليه السلام أخاً لنفسه، ولم يؤاخ غيره. ومن الطبيعي أن يستمرّ هذا الحسد ويقوى عندهم على مرّ الزمن كلّما نزلت في فضل علي عليه السلام آية أو ذُكرت له منقبة أو انتصر في جهاد أو فاق الآخرين علماً و إيماناً أو ارتقى درجةً تقرّبه من الله ورسوله، وتحبّبه إليهما.

وإذا دقّقنا النظر وجدنا الحسد أصلاً في الخلافات، وحتّى الروح العصبية القبلية عند العرب، كانت تنبع من الحسد، وقد أطال التاريخ في حسد "أمية" و"عبد شمس" لـ"هاشم" و"عبد المطلب"، واستمرار صفة الحسد في البيت الأموي بالنسبة إلى البيت الهاشمي حتى عصر معاوية ووقوفه في وجه عليّ عليه السلام في صفّين وغيره. وقد كان الخلاف في الخلافة من آثار ذلك الحسد أيضاً حيث دفع "بني هاشم" خاصّة عن حقّهم في الخلافة.

الثالث: العصبيات القبلية، لقد أشار كثير من الدّارسين في بحوثهم عن الغدير إلى العصبيات القبلية التي حاربها الإسلام؛ لكنّها لم تذبّ في وجود المسلمين، وقد بقيت في عصر الرسول كنار تحت الرماد، وظهرت إلى السّاحة مباشرة بعد موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا ما وصل إليه المسيحيّون – فضلاً عن الشّيعة – من خلال التاريخ والأحاديث، حتى قال "بارا": "وقد جاءت وفاة النبي لتكشف عن استمرارية الروح القبلية بين المسلمين، إذ لم تمض ساعات على وفاة الرسول حتى بدأت المداولات هنا وهناك بمعزل عن جموع أمّة الإسلام العريضة، وكلّها تبحث في مسألة الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم". (بارا، ١٩٢)

ثمّ تحدّث "بارا" عن رأي الأنصار الذين قالوا بأنّ الخلافة لهم ونازعهم فريق قرشي هذا المنطق، ورأى "بارا" أيضاً في خلفيات مواقف الماضي أثراً لما آلت إليه الأمور لاحقاً. ومن هذه الخلفيات، موقف وقفته قريش؛ بمهاجرها وطليقها، من بيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في يوم الغدير، حيث "أدركوا أن الهاشميين سيجمعون النبوّة مع الملك وتُحرم البطون من الشرفين معاً". (نفسه ١٩٣)

ونعود إلى قول "بارا" ونسمعه يقول: "قرّرت قيادة البطون، المهاجرون والطلقاء معاً. أن تتحرّك،

وأن تحوّل دون تحقيق ذلك، ورفعت شعاراً بدا لها معقولاً، وعرضت قسمة لاح لها بأنّها عادلة، فقالت: لتبقى النبوّة لبني هاشم لا يشاركهم فيها أحد من البطون، ولتكن الخلافة لبطون قريش وللناس عند الاقتضاء، لا يشاركهم فيها هاشميّ قط". (نفسه ١٩٣)

هذا هو القرار الذي اتّخذته بطون قريش. ثم راحوا يبثّون الدّعايات والإشاعات سرّاً بهدف التّشكيك بقول الرسول وبشخصه، وأنّ ولاية عليعليه السلام ليست من عند الله، إنّما هي باجتهاد الرسول الشخصي، واستطاعوا أن يجلبوا أنظار المنافقين في تقويض الإسلام، وساعد بعضهم بعضاً في مواجهة الرسول، ووصل الأمر إلى درجة أنّه "تلاطف مع البطون، طلاّب الدنيا أيضاً، وانضمّت المرتزقة من الأعراب إلى هذا التجمّع، وصار هذا التحالف الواقعي السرّيّ المكوَّن من بطون قريش وشراذم وفِرق المنافقين وطلاّب الدنيا والمرتزقة من الأعراب والرافضين لفكرة ولاية آل البيت، قوة هائلة، وبقيت الفئة المؤمنة الصادقة أقليّة وسط بحر هذا التجمّع المشبوه". (نفسه ١٩٤)

يتبيّن لنا في ضوء هذا التحليل دليل كثير من الأمور الغامضة في التاريخ من مثل تخلف بعض الصحابة عن جيش أسامة وعدم خروج هذا الجيش من المدينة لمواجهة العدو؛ على الرغّم من إصرار النبيصلى الله عليه وآله وسلم، لأنّهم خافوا أن يخلو الجوّ لأهل البيت، أو يحظى غيرهم بالخلافة، ويتبيّن أيضاً مخالفة بعض الصحابة الرسولَ في كتابة وصيّته، وتكشف أهداف قريش من توجيه الخلافة إلى غير عليّ عليه السلام حين قالوا لابن عباس: "كرهت قريش أن تجتمع النبوّة والملك فيكم بني هاشم". (ابن أبي الحديد ١٢: ٥٣)

هذا هو الهدف الذي قصدوه، لكنهم لم يستطيعوا أن يفصحوا عنه دائماً؛ لما فيه من إهانة إلى الرسول وإلى حكم الله، وما فيه من الحكم بإجحاف قسمة الله ورسوله، ثم إيثار حكمهم على حكم الله ورسوله، فلذلك رأيناهم بين حين وآخر يبرّرون أعمالهم ويحسّنونها بقولهم مثلاً أنّهم خافوا الفتنة والشقاق بين المسلمين، أو ظنوّا أنّ علياً مازال شابّاً ليس له خبرة الرجال والكهول، أو له مجال ليكون أميراً في المستقبل ...، وقد أشارت فاطمة الزهراء سلام الله عليها إلى هذا التبرير في خطبتها التي ألقتها في مسجد رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم على ملأ من المهاجرين والأنصار، وقالت: "زعمتم خوف الفتنة، أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (٤٩) (التوبة ٩: ٤٩) فهيهات منكم! وكيف بكم؟ وأنّى تؤفكون؟. (الطبرسي، ١٠١)

وقد نسي القوم أو تناسوا أنّ الذي جعل محمداًصلى الله عليه وآله وسلم نبياً، دون غيره من أهل الجزيرة، هو الذي

جعل عليّاً عليه السلام وليّاً دون غيره منهم، وأنّ الولاية ليست ملكاً مادّياً كما أنّ النبوّة لم تكن ملكاً مادياً، وقد ابتليَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمخالفة قومه في بدء دعوته، وحاربته قريش في نشر رسالته، واعترضوا على الله باصطفائه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم دون غيره من رجال القريتين العظماء – في رأيهم – وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (الزخرف٤٣:٣١)، فأجابهم الله بقوله القاطع الذي يسلب عنهم التدخل في الأمور الإلهية فقال: أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ. (الزخرف٤٣: ٣٢)

ذلك ليؤكّد لهم أنّ المعايير المادّية التي اعتمد عليها النّاس في اختيار النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حسب زعمهم، لا علاقة لها بالرحمة التي يخصّ الله بها مَن يشاء مِن عباده ولم يدركوا أنّ هذه الرحمة الربّانية خير ممّا يجمعون، وأنّ الرحمة يقسمها الله حسب مشيئته كما يقسم بينهم معايشهم، فما لهم إذا أراد الله أن يخصّ برحمته عبداً من عباده؟ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

إن قريشاً خالفوا النبيّ في نبوته واعترضوا على الله في اصطفائه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم دون غيره، هم الآن بتلك الفكرة وذلك الطبع وتلك الروح القبلية بدءوا يخالفون عليّاً عليه السلام في ولايته ويخالفون الله ورسوله في اختيارهما علياً عليه السلام، وقد انتبه "سلهب" إلى هذه الحقيقة وصرّح بها، عندما قال: "لو قدّر لعليّ عليه السلام عليٌّ آخر كالذي وقف بجانب محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لكان النصّر حليفه في الدنيا والآخرة في آنٍ معاً". (سلهب، ٤٠٩) فالدّافع للاعتراض في الماضي والحاضر أمر واحد ورؤية واحدة إلى الأمور، وهو عدم الرضا بقسمة الله ورسوله.

ويرى سلهب عليّاً عليه السلام مرمى للسهام بعد الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم ويرى في السقيفة أوّل سهم أطلق على عليّ عليه السلام فيقول: "ويُترك الأمر لأبي بكر وعمر ونفر من الصحابة يرون رأيهما، وتجري الأحداث، بل تتدفّق وتتزاحم ويصبح أبوبكر خليفة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ذاك كان السهم الأوّل يصيب علياً عليه السلام في الصميم فيؤلمه ويدميه". (سلهب ٣٩٠).يقول هذا وهو يعتقد اعتقاداً جازماً بأنّ الخلافة كانت من حقّ عليّ عليه السلام دون غيره.

و"جوزيف الهاشم" يصرّح بحقّ علي عليه السلام في الخلافة؛ بل يتحمّس لها وينبّه إلى الأمور والحوادث الّتي كان على المسلمين أن يأخذوها بعين الاعتبار، ثم يعترض على السقيفة وأصحابها، ويرى فيها طغياناً لأهواء أهلها، بعد أن أكّد على ما أهّل علياً عليه السلام لهذا المقام، ويقول:

هو الوصيّ على الميثاق مؤتمن بعد النبيّ على القرآن منتدب
هو الخليفة ما شأن السقيفة إن طغت على أهلها الأهواء والرتب
أنذر عشيرتك القربى لقد سمعوا ما قال ربك إن لم يفهموا كذبوا
وزيره في حديث الدار ما فطنوا وليّ من كان مولاه فما احتسبوا
توسّلوا الغنم فاغتابوا تفجّعه على الرسول ودمع القلب ينسكب
تشاجروا ينهشون الإرث في جشع يا ويل قوم على الأعقاب ينقلب

(الهاشم، ٣٥)

فيرى علياً عليه السلام وصياً قامت وصايته بدعم من القرآن وميثاق من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، يشهد بذلك ما ورد من مناقب لعلي عليه السلام في آيات من القرآن الحكيم و بنصوص وردت في أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم. منها ما أشار إليها الهاشم من آية الإنذار و حديث الدار و وواقعة الغدير؛ لكنهم كذبوا وما فطنوا لحقّه وما احتسبوا له حسابه، واغتنموا فرصة غيابه وفرصة حزنه وتفجّعه على الرسول، فتشاجروا ونهشوا إرث النبي صلى الله عليه وآله وسلم حريصين، فيلوم المسلمين ويستغرب من الأعمال التي قاموا بها في السقيفة وأنّهم بهذا انقلبوا على أعقابهم، ثم يقيم مقارنة بين هؤلاء الذين حرصوا على مغانم الخلافة وبين من فجع بموت الرسول وأرهبه هول فراغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومشهد فوته، ويقول:

شتّان بين لظى المفجوع، يُرهبه هولُ الفراغ، وذاك المشهد العجب
وبين من تاه في أحلام نزوته فراح يلعب فيه العرض والطلب

(نفسه ٣٦)

إذا دقّقنا النظر وجدنا ما يملكه علي عليه السلام وهو في محضر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا يقاس بما يسعى إليه هؤلاء بجهد ومشقة، وقد انتبه "بولس سلامة" إلى بعض تلك القيم المعنوية عند علي عليه السلام من خلال خاتم النبي وسيفه الذين أهداهما إلى علي عليه السلام قبل أن يسلِّم الروح إلى باريها، ورأى فيهما كنزاً يظلّ إزاءه كنز قارون وكسرى قليلاً، فقال:

فحباهُ النّبيُّ خاتمَه العلـ ـويّ قَدراً والمستَحيل عَديلاً
وحباهُ حمائلَ السَّيف فوقَ الـ ـختم رمزاً لا يَقبل التّأويلا
أيّ ذُخرٍ! إزاؤه كنزُ قارو ـن وكِسرى يَظلُّ نَزراً قليلاً

(سلامة، ١١٦)

يعتبر "سلامة" عطاء الرسول هذا رمزاً لولاية عليعليه السلام ووراثته للنبيصلى الله عليه وآله وسلم، رمزاً من الوضوح والصراحة بمكان لا يقبل التأويل، لأنّ الخاتم والسيف مما يسلّم إلى الوارث الحقيقي، الذي يرث الراحل ويكون وليه وخليفته في القيام بشؤونه وبما كان يعتني به في حياته.

والحقيقة أنّنا لا ندرك عظمة الأنبياء والأولياء ومكانتهم عند الله عزّ وجلّ، بل ننظر إلى أمورهم نظرة مادّية محدودة كنظرتنا إلى أمورنا، فإذا أدركنا ما هُم عليه من عظم الأمور في عوالم المعنى لصغَّرنا العالم على كبره، ولعرفنا أنّ الدنيا بأسرها إن ملئت ذهباً وأهديت إلينا لنملكها أعواماً وقروناً، لا تساوي لذة لحظة من رؤية الملكوت ومشاهدة عالم يعيش فيه هؤلاء الأبرار الكرام.

وعليعليه السلام هو الذي عاش ذلك الجوّ الروحاني مع النبيّصلى الله عليه وآله وسلم وحتى حين كان مشغولاً بتجهيزه، لم يفارق ذلك الجوّ أبداً، انظر إلى ما يقول عليّعليه السلام عن وقت تجهيز النبيّصلى الله عليه وآله وسلم: "ولقد قُبض رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم وإن رأسه لَعلى صدري، ولقد سالت نفسه في كفّي فأمررتها على وجهي، ولقد ولّيت غسلهصلى الله عليه وآله وسلم والملائكة أعواني، فضجّت الدار والأفنية، ملأ يهبط، وملأ يعرج، وما فارقت سمعي هينمة منهم، يصلّون عليه حتّى وارياه في ضريحه، فمن ذا أحقّ به مني حياً وميتاً؟". (نهج البلاغة، الخطبه ١٩٧:٣)

يا ترى هل يُعقل أن يترك عليّعليه السلام جُثمان النبيّ الكريم وضيوفه من الملائكة المقربّين الذين جاءوا يعزّون علياًعليه السلام وأهل بيته، لصالح الخلافة التي اختلف حولها المهاجرون والأنصار، ليتهم يصيبهم من غنائمها شيئاً؟ هل يترك إقبال الملائكة إليه، ليفرض نفسه على قوم استغلّوا غيابه ليعقدوا مجلسهم، وإنّهم لا يريدونه لأنّه هاشمي أوّلاً ولأنّه ابن عمّ الرّسول ثانياً، ولأنّه عليّعليه السلام ثالثاً، وقريش تكره أن تجمع بين الرسالة والخلافة في بيت بني هاشم؟

وجاء خبر السقيفة إلى عليّعليه السلام في حين كان مشغولاً بغسل النبيّصلى الله عليه وآله وسلم فلم يترك النبيّصلى الله عليه وآله وسلم مسجيً على فراش الموت لصالح خلافة يعتبرها "أقل قيمة من نعلٍ بثلاث دراهم" إلاّ أن يقيم حقّاً أو يبطل باطلاً. (راجع نهج البلاغة، الخطبة١٦٠: ٣٦) فإذن، المهمّ عند عليّعليه السلام هو إقامة الحقّ، وكان من الحقّ أن يحترم جثّة الرسول الأكرم ويعتني بشؤونه، ولا يتدخل في أمر السقيفة.

وللإنسان أن يفكر في ما كان يمكن أن يحدث، لو ترك عليّعليه السلام الرّسولَصلى الله عليه وآله وسلم ميتاً على فراشه واشترك معهم، أو أقام سقيفة أخرى وبايعه آخرون كما أراد ذلك له أبو سفيان! وردّ عليه الإمام بقوله: "إنك والله ما أردت بهذا إلاّ الفتنة، وإنك لطالما بغيت للإسلام شراً، لا حاجة لنا في

نصيحتك". (الطبري، ٢١: ٤٤٩)

ونعود لنقول على لسان نصري سلهب: "فلنعُد إلى الغدير، نعبّ من مياهه العذبة الصافية، فنروي أنفسنا العطاش إلى المجد، ولنذكر قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: الجماعة رحمة والفرقة عذاب، فلن نحتفل، بعد اليوم بذكرى الغدير، شيعةً دون أخرى، ولا بذكرى كربلاء، فئة دون أخرى، فعليّ والحسين وآل البيت عليهم السلام، هم منَّا ونحن منهم، أبناء عائلة واحدة، جميعنا أبناء آدم و آدم من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم". (سلهب،٢٥٤)

النتيجه

وصلنا من خلال مباحثنا حول رؤية تحليلية لقضية الغدير أن المسيحيّين الدّارسين لهذا الموضوع يرون الغدير حقيقة تاريخية لا يمكن أن تنكر؛ كما أنّه من الناحية العقلية ضرورة يتطلّبها الدين الإلهي في سبيل كماله وانتشاره فى جميع أنحاء العالم. فهم بهذا يرون الغدير فتحاً مبيناً فَتح للإسلام أبواب الرسالة العالمية. ولا يمكن لأحد أن يؤدي تلك الرساله العالميه بجميع أبعادها السياسية والدينية والعلمية إلا مَن كان مِن نفس محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن شجرته، مصطبغاً بصبغته. مِن هنا كان على النبيّ أن يبلغ تلك الرساله و يحقّق وحي الله في إبلاغ ولاية علي عليه السلام وإن لم يفعل فما بلّغ رسالة الله.

كما تطرقوا لا محالة إلى إهمال الغدير ووقفوا معترضين، ورأوا أن الأمّة الإسلامية لم يكن لها أن تقف هذا الموقف من الغدير ومن عليّ عليه السلام، مع علمهم بالوحي السماويّ من جانب وبمكانة عليّ عليه السلام عند النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من جانب آخر؛ إنهم حلّلوا الأمور ووجدوا جذور الإهمال والتكذيب وأسباب العدول عن عليّ عليه السلام تبرز في أمور، منها بغض قريش لعليّ عليه السلام أوّلاً والحسد ثانياً والتعصب القبلي ثالثاً. إلا أنهم اعترفوا بوجود قيم معنوية لعليّ عليه السلام لا ينازعه فيها أحد، وتلك القيم كنوز يظلّ إزاءها كنوز قارون وكسرى قليلاً.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

نهج البلاغة. تحقيق محمد دشتي. قم: انتشارات أمير المؤمنين، ١٣٧٨هـ.ش.

١. الإربلي، علي بن عيسى. **كشف الغمّة**. تبريز: مكتبة بني هاشمي،١٣٨١هـ.ق.

٢. ابن حنبل، أحمد. **مسند أحمد**. بيروت: دار صادر، "د.ت".

٣. الأميني، عبد الحسين أحمد. **الغدير في الكتاب والسّنة والأدب**. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٧ م.

٤. الأنطاكي، عبد المسيح. **ملحمة الإمام علي**عليه السلام. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٩١م.

٥. بارا، أنطون. **الحسين**عليه السلام **في الفكر المسيحي**. لبنان: دار العلوم، ٢٠٠٦م.

٦. جرداق، جورج. **الإمام علي صوت العدالة الإنسانية**. قم: مطبعة كيميا، ١٣٢٣هـ.ق.

٧. الخوارزمي، الموفق بن أحمد بن محمد المكي. **المناقب**. قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ١٤١٤هـ.ق.

٨. سلامة، بولس. **عيد الغدير**. قم: مطبعة أفق، ١٤٢٣هـ.ق.

٩. سلهب، نصري. **في خطى محمّد** ويليه **في خطى عليّ**. بيروت: دار الميزان، ٢٠١٠م.

١٠. شكّور، جورج. **ملحمة الإمام علي**عليه السلام. بيروت:، SAB international، ٢٠٠٧م.

١١. شكّور، جورج. **عنهم و عنّي**. بيروت: دارالأخطل الصغير، ٢٠٠٦م.

١٢. الشهابي، إبراهيم. **الشخصية العربية**. دمشق: مكتبة دارالفتح، ١٩٨١م.

١٣. الصدوق، محمد بن الحسين بن بابويه القمي. **الأمالي**. قم: المكتبة الإسلامية، ١٣٦٢هـ.ش.

١٤. طبرسي، أحمد بن علي. **الاحتجاج**. مشهد: نشر المرتضى١٤٠٣ هـ.ق.

١٥. الطبري، محمد بن جرير. **تاريخ الأمم والملوك**. بيروت: مؤسسة الأعلمي، "د.ت".

١٦. الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن. **الأمالي**. قم: دار الثقافة، ١٤١٤هـ.ق.

١٧. العزيزي، روكس بن زائد. **الإمام علي**عليه السلام **أسد الإسلام وقدّيسه**. بيروت: دارالكتاب العربي، "د.ت".

١٨. كتاني، سليمان. **الإمام علي نبراس وممتراس**. بيروت: داراالهادي، ٢٠٠٧ م.

١٩. الكليني، محمد بن يعقوب. **الكافي**. تهران: دارالكتب الإسلاميه، ١٣٦٥ هـ.ش.

٢٠. المجلسي، محمد باقر. **بحار الأنوار**. بيروت: مؤسسة الوفاء، ١٩٨٣م.

٢١. المسعودي، علي بن الحسين بن. **مروج الذهب**. بيروت، "د.ت".

٢٢. الهاشم، جوزيف. **علويات (قصائد من وحي الإمام)**، بيروت. لبنان، ١٩٩٩م.

٢٣. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب. **تاريخ اليعقوبي**. بيروت: دار صادر، "د.ت".